

القوة الحربية لمصر والشام في عصر الحروب الصليبية

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

- ١ -

كون العز انضبت عمره جيشاً لجبا كان أكثره من قبيلة كتامة التور، أعدت الأميرة المالكة ، وأخلصت لها في بلاد المغرب ، وعلى رأسها تم فتح مصر ، ولكن جيش الفاطمية لم يحتفظ بوحدة عنصره خروفاً من استبعاد هذا العنصر ، فكانت تفتقر فرقا أخرى من الديلم والأراك ، حتى إذا كان عهد المستنصر المذكور ، أنه من السودان . حتى بلغوا نحو خمسين ألفاً ، وانضم لهم من الأراك ، فلما جاء بدر الجمالي من عكا أقام له جيشاً من الأراك ، وبنائه بنفسه ، وساروا معظم الجيش . وشبه الحروب الصليبية ، والجيش في مصر يتكون من هذه العناصر المختلفة ، عسناً إليها عنصر البدر من بلاد الحجاز . ويظهر أن الفاطميين لم يكونوا من أبناء مصر فرقا في جيشهم ، فلم يرد ذكر لفرقة مصرية في كتب التاريخ ، ولم يحدثنا عنها ناصر خسرو الذي وصف الجند في عهد المستنصر ؛ وإنما اعتمدوا على هذا المزيج الأجنبي بما يدر إصلاح الدين قلب دولتهم من غير أن ينهض المصريون للدفاع عنها .

كان الجيش في مصر مكوناً من هذه العناصر المختلفة التي ظلت تغذي في المدة الباقية من الحكم الفاطمي ، وسُميت فرقة بأسماء مختلفة تدل على موطنها حينما كطائفة البرقية الذين قدموا من بركة ، أو على من كونها حينما آخر من خليفة أو وزير كطائفة الحافظية والأسرية والجبوشية والأفغنية ، نسبة إلى الخليفة الحافظ والخليفة الأمر ، وأسير الجيوش بدر الجمالي وابنه الأفضل ، أو على جنسها كالفرقة الرومية والسودانية ، أو على قبيلتها كفرقة المضامرية المكدنية ، وإحدى قبائل البربر ، أو على زعيمها كطائفة الميمونية نسبة إلى ميمون .

لم تدب هذه العناصر بعضها في بعض لتكوين وحدة متسقة ، ولكن احتفظ كل عنصر بشخصيته ، وسكنت كل طائفة في

حارة خاصة بها ، ولم تكن الصلة بين هذه الطوائف صلة حب وولام دائماً ، وإنما كانت المنافسة هي الظاهر السائد بينها . وكثيراً ما أدت المنافسة إلى الاشتباك و حرب بين هؤلاء المتنافسين ، كذلك الحرب التي شبت بين الأراك والسودان في عهد المستنصر والتي لم تهدأ إلا بعد أن جلبت الخراب على مصر . وقد يثير الطامعون في الحكم الفتن بين هذه الفرق ليستنصروا ببعضها على بعض ، فتنداع نيران الحرب بين الفريقين كما فعل الأمير حسن ابن الحافظ لدين الله الذي كان يبتغي أن يكون ولي العهد بدل أخيه حيدرة ، فإنه أثار الفتنة بين الطائفة الجبوشية والطائفة الرومائية ، والتقى الفريقان في معركة قتل فيها ما يزيد على خمسة آلاف نفس ؛ وكانت هذه الواقعة أول مصائب الدولة الفاطمية ، وكما حدث في الحروب التي قامت بين شاور وشراف .

هنا المزيج إنما يصلح لدفاع الصليبيين إذا وجد القائد القوي المدرب ، أما وقد ضعف الخلفاء ، وأصبح هم وزراءهم الأول الاحتفاظ بالسلطة في أيديهم ، فقد أبقى الوزراء الجيوش الموالية لهم في مصر لتوطيد شوكتهم في البلاد ، فلم يكن موقف الجيش المصري من الحروب الصليبية الأولى ناشئاً من قلة كما سنرى ، وقد حاول الأفضل بن أمير الجيوش أن يستعين بالثاربة على حرب الصليبيين ولكن لم ينجح .

وكان الجيش بالشام في تلك الفترة من الزمن بالإمارات المختلفة مكوناً من العرب ولا سيما البدو ، ومن الترك (١) .

والظاهر أن أقوى الفرق بمصر عند ما جاء إليها صلاح الدين كانت الفرقة السودانية التي اعتبرها السودانيون ، فزحوا إلى مصر ، وسار لهم بها شوكة وقوة ، وكونوا لهم في كل قرية ومحلة وضيفة مكاناً مفرداً لا يدخله وال ولا غيره احتراماً لهم . ويبدو أنه عز على هذه الطائفة أن ترى صلاح الدين وجيشه الجديد ينتصب ملهماً من القوة والنقود ، فدر زعمائها المكائله ، ولكنه يادر بقتل زعيمهم ، وما جتمعهم في جهم ، فهزيمهم وخرب حارتهم التصورية وتبهمهم في بلاد الصعيد حتى أقتام .

وكون صلاح الدين جيشاً معظمه من الأكراد . قال ابن إياس (٢ ص ٦٠) : « لما سلك صلاح الدين أزال ما كان بمصر من

(١) ابن الأثير ص ١٠٠ من ١١٤ .

إلى عشرة آلاف^(١) ، وظل المهاليك حفظة أوفياء للصالح وذكراه
ومنذ ذلك الحين إلى أن انتهت الحروب الصليبية والنصر الثاب
في الجيش النظامي الدائم هو عنصر الأتراك المهاليك وإن كان في
الجيش أكراد وعرب ، أما عند ما هوجت مصر ، وبدأ خطر
استيلاء الفرنج عليها في عصر الكامل والصالح فقد هب المصريون
للدفاع عنها ، واجتمع منهم عدد ضخم سامح مساهمة فعلية في الدود
عن حياض الوطن^(٢) ، وفي الحملات الحربية التي شنتها مصر في
جنوب الروادي أو ضد المنول أو الفرنج في عصر المهاليك لم تتكون
جيوشها من المهاليك وحدهم ، بل شاركهم في ذلك المصريون
والسوريون والبدو من العرب ، وكان عددهم يزيد على عدد المهاليك^(٣)
ومن ذلك يبدو لنا أن المصريين والعرب قد ساهموا - ولا مزية
في ذلك - بنصيب كبير في الحرب ضد الصليبيين والمنول في
عصر الأيوبيين والمهاليك ، فإن هذه الأرقام الضخمة التي يحفظها
التاريخ للجيش الإسلامي المهاجم أو المدافع لا يمكن أن تنهه
إلا على أساس اشتراك المصريين والعرب في هذا الجيش الذي
يجب أن نميز فيه بين جيش نظامي ثابت قد يكون للعرب
والمصريين فيه نصيب متواضع ، وبين جيش قائم بحملة حربية ،
يساهم فيه هؤلاء بالنصيب الأوفى .

كان الجيش في العصر الفاطمي مقسماً إلى درجات ثلاث
رئيسية : أولاها طيبة الأسماء ، وأعلام ذور الأطواق الذهبية ،
ثم حملة السيوف الذين يحرصون الخليفة في موكبه ، ثم القواد
العاديون . وثانها رجال الحرس ، وأرقام الأستادون الذين يوكل
إليهم مهام الأمن ، ثم شباب الحرس وهم نخبة ممتازة من شباب
الأسر عدتهم خمسمائة ، ثم فرق تكفلات الخليفة ، ويلقبون زهاء
خسة آلاف ، وثالثها فرق الجيش كل فرقة تحمل اسماً خاصاً بها
كما ذكرنا^(٤) .

وتكون الجند زمن الأيوبيين والمهاليك من طبقتين : هما

(١) المرجع السابق ص ٢٤٥ .

(٢) ابن لياس ص ١٨ و ٧٦ و ٨٥ و ٨٦ .

(٣) ابن لياس ص ٩٦ و ٩٧ للسلك ص ١٨ و ٢٤٩ وسود
ص ٥٧ و ٦٠ .

(٤) ابن بول ص ١٥٤ .

العناصر الملتفة وكانوا بين صفالفة وكداة ومصامدة وأرمن
وشفاة العرب والعبد السود ، فبما تلك الطوائف جميعها ،
وأخذ بمصر مهاكر من الأكراد خاصة ، فكان عدتهم اثني
عشر ألف فارس من شجبان الرجال الذين لا يكون من الحروب ،
ولكن يظهر أن الجيش في عهد صلاح الدين أيضاً لم يكن
موحد الناصر من الأكراد بل كان فيه ترك وعرب . وربما كان
صلاح الدين قد فسح المجال للمصريين فالتحقوا بسلك الجندية
وكونوا فرقا ، بل يظهر أن صلاح الدين وخلفاءه لم يبرحوا
جيش الفاطميين تريباً تاماً ، بل أبقوا على بعض فرقه ، في
عهد العزيز بن صلاح الدين يسجل التاريخ تبالا دار بين الطائفة
المحمودية واليانية ، وهما من فرق الجيش الفاطمي .

وحافظ خلفاء صلاح الدين على تكوين جيوشهم من الأكراد
والترك والعرب ، وقسمت الجيوش فرقا نسبت كل واحدة منها
إلى أحد القواد النظام كالفرقة الأمدية نسبة إلى أسد الدين
شيركوه ، والصلاحية نسبة إلى صلاح الدين ، والأشرفية نسبة
إلى الأشرف موسى .

وكالم تذب العناصر بعضها في بعض أيام الفاطميين لم تذب
كذلك في عهد الأيوبيين ، وكان النزاع يحدث أيضاً بين هذه
العناصر والفرق ، أو يناحاز بعضها إلى زعيم وينحاز بعضها الآخر
إلى زعيم غيره كما حدث ذلك في أيام العزيز ، وفي عهد العادل
الثاني . غير أن القيادة القوية في عهد الأيوبيين لا تلبث أن تسيء
النظام إلى نصابه ، وتقبض بيدها القوية على الزمام ، فيسود السلام
ويسود النظام .

وظل الناصر الكردي هو الثاب على الجيش طوال عهد
الدولة الأيوبية حتى عهد الصالح أيوب الذي استكثر من شراء
المهاليك ، وكان معظمهم من الأتراك . وسبب استكثاره منهم
أنه لس إخلاصهم ووقائهم له في الشدة التي ألت به في حرب لأخيه
العادل ، فإنه عند ما اعتقل بالكرك ، انفض من حوله جنده من
الأكراد ، ولم يبق معه سوى مهاليك الذين اشتراهم ، فمند
ما استولى على عرش مصر حفظ لهم ذلك الجليل ، واستكثر منهم
حتى صار منهم معظم الجيش ، وارتفع عددهم في معركة المنصورة